قراءة في تفسير ابن كثير

سورة المجادلة

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن؛ أهله وخاصته، ونكون بهذا القرآن منتفعين في إصلاح أرواحنا ومسالكنا ومقاصدنا وهمومنا؛ حتى نعيش في هذه الحياة مطمئنين، فإن رب العالمين؛ وهو الذي وصف نفسه -عزَّ وجلَّ- بأنه (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، سيحاسب الخلق على جميع أفعالهم التي أحصاها، وهم قد نسوها! وهذا يجعل الإنسان المؤمن مشغولًا بهمّ الآخرة، كما تدارسنا في سورة المجادلة أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يهدد هؤلاء الذين حادوا الله ورسوله وتعدوا على حدود الله في كلامهم وفي فهومهم وفي تصوراتهم وفي أحكامهم، فهؤلاء (الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) من أهل النفاق، هددهم رب العالمين أنه في الدنيا سيكبتهم ويذلّهم ويخزيهم، وفي الآخرة حين يبعثهم -سبحانه وتعالى-، سينبئهم بتفاصيل أعمالهم التي نسوها والله أحصاها عليهم.

وهذا يجعل أهل الإيمان حين يسمعون هذا التهديد لأهل النفاق يكونون مشغولين غاية الانشغال بالآخرة ويكونون باذلين غاية البذل في إصلاح أعمالهم. همّ الآخرة يجدد الأمل في التوبة والعودة إلى الله مهما كانت المسافة بعيدة بين الإنسان وبين الصلاح، حين يلتفت الإنسان ويهتمّ بالآخرة ستقترب التوبة منه، همّ الآخرة هو الذي يجعل حرارة الإيمان متوقدة في قلب الإنسان فتدفع مكائد الشيطان التي لا تتوقف غاراتها على بني آدم.

حين نفكر في هذه الآيات ونعلم أن الله -عزَّ وجلَّ- سينبئنا بما عملنا وأنه -عزَّ وجلَّ- قد أحصاه ونحن قد نسيناه، ونسمع عنه -عزَّ وجلَّ-، أنه (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) لا يغيب عنه أمر من الأمور قط. وهذا يعني أنه -عزَّ وجلَّ-، سيعرض على الخلق تفاصيل أعمالهم، لا يفوته شيء -سبحانه وتعالى-، لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطّلع وناظر.

حين نسمع هذا الكلام عن الدار الآخرة، هذا يبثّ فينا حرارة الإيمان، فندفع مكائد الشيطان، فهمّ الآخرة:

- يجدد الأمل في التوبة.
- وهمّ الآخرة يوقد نار الإيمان فندفع مكائد الشيطان.

- وهمّ الآخرة يجدد الأمل في تبديل واقع الإنسان، بل حتى واقع أمّته.

- وهمّ الآخرة يجعل الإنسان في ثقة أن أعماله لا تضيع وأن بذله الذي يبذله لإصلاح نفسه وإصلاح مجتمعه لا يغيب عن الله -عزَّ وجلَّ-.

بل الله -عزَّ وجلَّ-، يحصيه، وكل اعتداء على الإسلام وعلى أهله، الله -عزَّ وجلَّ- يحصيه على أصحابه ويخزيهم ويكبتهم، وحين يبعثهم يوم القيامة بهذا الذي فعلوه سيعرض على الخلائق (فَيُنَبِّئُهُمْ) يعني: يخبرهم بما عملوا في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخًا لهم وتكميلًا للحجّة عليهم ويفضحون على رؤوس الخلائق تخجيلًا لهم وتشهيرًا لحالهم وتشديدًا بعذابهم.

هذا كله يجب أن يكون على بالنا؛ أن الآخرة قريبة وشأنها عظيم، فلا ينشغل الإنسان بما ساد في الواقع من فلسفات وتصورات وأفكار ونظريات آمن بها الناس حينًا من الدهر؛ فشغلتهم عن الحق وشغلتهم عن التفكير في لقاء رب العالمين، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رب العالمين أكّد أن هذا الأمر سيكون، وأكّد -سبحانه- أنه عالم بكل شيء، فقال -عزَّ وجلَّ-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ). وهذه الآية التي توقفنا عندها على أن نستفتح اليوم بها ونناقش المسألة المهمة في هذه الآية وهي مسألة: معيّة الله.

نسمع الآية أولًا ثم نبدأ الكلام عن المعيّة.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

في هذه الآية الكريمة تأكيد على أن (اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، وبيان معنى عظيم يهتم به أهل الإيمان، وهو معنى: معيّة الله، سنفرد لهذا المعنى نقاش ثم نشير إلى تفاصيل الآية.

هذه الآية العظيمة -وهي الآية السابعة من سورة المجادلة- دليل عظيم عند أهل الإيمان من أهل السنة على معيّة رب العالمين، وهنا نبدأ ببيان ما معنى المعيّة، ثم نأتي إلى أقسام المعيّة.

معنى المعيّة

المعيّة ليس معناها في اللغة "الملاصقة" ولا "الممازجة"، إنما معنى المعيّة في اللغة: مطلق المصاحبة. وكلّ بحسبه. في بعض سياقات الكلام يمكن أن يكون معناها: "الملاصقة"، وفي بعض سياقات الكلام لا تدل على الملاصقة، ومن أشهر الأمثلة التي يقولها أهل السنة -نسأل الله أن يجعلنا منهم- حين تقول: "سِرت والقمر"، ماذا نريد أن نقول هنا؟ أنت على الأرض تمشي والقمر في السماء، تقول: "سرت والقمر" وهذا الكلام صحيح وأنت مصاحب للقمر في مسيرك لكن هذه المصاحبة لا تقتضي الملاصقة، بل أنت في مكانك والقمر في مكانه. ومثل هذا كثير في كلام الناس، تقول لأحد: "اذهب في هذه المهمة وأنا معك أتابعك" فيمكن أن تكون هذه المتابعة هاتفية أو بأدوات مختلفة، لكن أنت باقٍ في مكانك وهو في مكانه. الشاهد أننا نستخدم "مع" في لغة العرب بمعانٍ متعددة كلها يجمعها: "المصاحبة" لكن هذه المصاحبة تكون بطرق مختلفة، كلّ مصاحبة بحسبها.

فإذا تبيّن هذا سنعرف معنى هذه الآية العظيمة، وهي: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) ما معنى هذه الآية؟ معناها أن الله معهم -عزَّ وجلَّ-، وهو فوق خلقه، مستوٍ على العرش -سبحانه-، ومن بداية

الآية وختام الآية نستطيع أن نفهم هذه المعيّة. ابتدأت الآية بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وختمت بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وهذه الآية ونقاشها شاهد لما مرّ في الآية السابقة أنه -سبحانه وتعالى- (يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وأنه (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، لما أخبرنا أنه (يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) أخبرنا أيضًا في آية المعيّة (إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فالسياق كله يدل على أن هذ المعيّة معيّة العلم. وهنا يجدر بنا بيان أنواع المعيّة كما يذكرها أهل السنة. **فإن معيّة الله لعباده نوعان:**

النوع الأول: معيّة عامة، وهي التي تقتضي العلم والإحاطة كما في هذه الآية، عامة لكل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، ومعنى معيّة الله في هذه الحالة: أنه -عزَّ وجلَّ- محيط بهم علمًا، معهم، يسمعهم ويعلم أحوالهم، ومطّلع على ظواهرهم وسرائرهم، بل حين يتناجون هو معهم يسمع مناجاتهم -سبحانه وتعالى-.

فهذه معيّة عامة لكل الناس، لذلك قال:(مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ) في أي مكان يخطر أو لا يخطر على بالك في العالم، الله مع المتناجين، بل مع الخلق أجمعين.

النوع الثاني: هناك معيّة أخرى نرجو أن نكون من أهلها الذين لهم شروط مختصرها في الآية: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) بهذا نتصور المعيّة الخاصة التي تكون لأهل الإيمان المتقين، بل البالغين درجة الإحسان، الذين يبذلون جهودهم أن يحسنوا في أعمالهم فالله معهم ينصرهم ويؤيدهم. بهذا نعلم أن معيّة الله -عزَّ وجلَّ-، لخلقه تشمل جميع الخلق وهي المعيّة العامة.

وهناك معيّة تخص أهل الإيمان والتقوى والإحسان على حسب درجة إيمانهم وتقواهم وإحسانهم فينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم ويرشدهم، فهو معهم -سبحانه وتعالى-. وأعظم من كان له نصيب في هذه المعيّة: الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)[1]. فهذه المعيّة الخاصة المفترض أن تكون عند أهل الإيمان أمنية يقضون أوقاتهم ويبذلون جهودهم لأجل الوصول إليها.

انتهى المقصود من مناقشة المعيّة ونعود إلى هذه الآية الكريمة فنقرأ كلام ابن كثير في معناها:

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ، وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ، وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ

---

[1]() طه: 46.

كَانُوا، فَقَالَ: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ) أَيْ: مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ (إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) أَيْ: يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ وَسَمْعِهِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)[2]

وَقَالَ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)[3] ؛ وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ وَلَكِنَّ سَمْعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ

.

ثُمَّ قَالَ: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ .

هذا الكلام العظيم الذي ذكره ابن كثير موضحًا معتقد أهل السنة والجماعة في هذا الباب، قد تبين لنا ونؤكد على معاني الآية مرة أخرى، في الآية السابقة علمنا خبر عن الله؛ وهو

---

[2] () التَّوْبَةِ: 78.

[3] () الزُّخْرُفِ: 80.

أنه -سبحانه وتعالى- سيبعث هؤلاء المحادين الذين شاقّوا الله ورسوله وعاندوا شرعه، وكما ذكر ابن كثير: "يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، (فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) أَيْ: يُخْبِرُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ" وأخبرنا -عزَّ وجلَّ-، أنه أحصاه كما ذكر ابن كثير أي: "ضَبَطَهُ اللَّهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ ماذا حصل لهم؟ نسوه قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ" فأخبرنا الله أنه سينبئهم بما عملوا، فهذه الجملة تتعلق بها هذه المعاني؛ (فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) كونوا متأكدين أن يوم القيامة يوم سينبأ فيه الناس بما عملوا؛ فلذلك -كما بدأنا لقاء اليوم- يجب أن يكون همّ الآخرة على بالنا، وهمّ الآخرة يشعل حرارة الإيمان.

فعلمنا أن رب العالمين سينبئ الخلق جميعًا بما عملوا، وإن كان أصل السياق الكلام عن المحادين لله، يتعلق بهذا، حين تسمع أنه سينبئ الخلق جميعًا بما عملوا، تعرف أن الله أحصاه.

ويأتي هنا خبر مهم، كأن السامع يقول: "أحصاه، -سبحانه وتعالى-، وهذا الإحصاء شأنه عظيم"، كأنك تسأل وتقول: "كيف ينبئهم بأعمالهم وهي أشياء ذهبت؟!" فيقال: أحصاه الله عددًا لم يفته شيئًا، -سبحانه وتعالى-.

تقول: "هل أحصى الله كل أعمالهم؟" فيقال: "نعم، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) لا يغيب عنه أمر من الأمور قط!" فيتعجب الإنسان من هذا الخبر فيزيده الله -عزَّ وجلَّ-، بيانًا؛ لذلك ابن كثير يقول: "ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ، وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ، وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا -يزيد العجب من هذا الحال، فيقول لنا رب العالمين:- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ)".

ألم تعلم علمًا يقينيًا بأنه -تعالى- يعلم ما في السماوات وما في الأرض؟ وكأن هذا مطلب منّا أن نعلم علمًا يقينيًا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض. وتصور (أَلَمْ تَرَ) يعني: تعلم علمًا هو في وضوحه كالرؤية بالعين، كأنك ترى هذا الشيء، فهل يمكن أن يصل يقيننا بهذه الصفة إلى حال كأننا نراها؟ الجواب: نعم، خصوصًا لو تفكرنا في الأحوال التي تمر علينا، فنجد أن رب العالمين يخبرنا بما في وجداننا، فيعطينا أو يمنعنا أو يُرينا أو يُسمعنا أمور تحل إشكالاتنا، تبين خطورة أفكارنا، إلى آخر ما يمكن أن نعيشه ونشعر من خلال هذه المواقف بأنه الباطن -سبحانه وتعالى-. وهنا تأتي قصة هذه المرأة المجادلة في رأس هرم الشواهد، وسمعنا بعائشة- رضي الله عنها- حين قالت: "سبحان من وسع سمعه

الأصوات" هذا شاهد عظيم لأنه -سبحانه وتعالى- سمع مجادلة المرأة وهي في غاية الخفاء، فعائشة، في تلك الغرفة المباركة الصغيرة التي لا يخفى فيها الصوت إلا إذا كان منخفضًا غاية في الانخفاض فلا تسمع عائشة المرأة وينزل من السماء: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ)! فهذا شأن من أعظم الشؤون، وشاهد من أعظم الشواهد، شأن يجب أن يلتفت نظرنا إليه ونحن نرى أنفسنا أننا لا نستطيع أن نحيط بالأشياء القريبة المعروفة، ما نحيط بها علمًا، الأشياء المدركة حولنا جزء كبير منها غيبيّ رغم أنه في عالم الشهادة، لكن حتى أبداننا لا نعرفها ولسنا محيطين بها علمًا، والنسيان أكبر دليل على غفلة الإنسان، كما قال -عزَّ وجلَّ-: (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ).

(أَلَمْ تَرَ) هنا رب العالمين يخبرنا، كما ذكر ابن كثير: "عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ، وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ، وَرُؤْيَتِهِ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا" ويزيد الأمر في إظهار معنى اسمه الباطن -عزَّ جلَّ- ببيان حال التسارر، (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ) يعني: من سر ثلاثة، يتناجون، والنجوى تعني: السر، الكلام بين الاثنين سرًا. ومعنى النجوى في اللغة يزيد بيان هذا الأمر، فأصل "النجوى": هو المكان المرتفع من الأرض. و"النجو" من معانيه: الكشف، فكأن المُسارّ يرفع ما كان في ضميره إلى صاحبه ويكشفه. فهنا هذا السر الذي

يخرج من نفس الإنسان وينكشف ويكون هذا الإنسان حريصًا على ألا يسمعه أحد، فليعلم أن الله هو ثالثهم، ومثله لو كانوا أربعة هو خامسهم، ولو كانوا خمسة هو سادسهم وأدنى من ذلك أو أكثر فالأعداد لا قيمة لها. قال ابن كثير:

"أَيْ: مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ (إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) أَيْ: يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ وَسَمْعِهِ لَهُمْ" وفي هذا إكمال لشواهد العرض يوم القيامة عليهم، والله -عزَّ وجلَّ- قد أورد هذا المعنى في مواطن كثيرة في كتابه منها آية التوبة التي أوردها ابن كثير. "كَمَا قَالَ: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الْغُيُوبِ)[4]".

ونلاحظ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)، (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ) ومثلها آية الزخرف: "وَقَالَ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)[5]".

سنلاحظ أن رب العالمين يخاطبنا في هذه الآيات -سواء آية المجادلة أو آية التوبة- ليكشف عنّا الجهل ولا نكون مثلما

---

[4] () التَّوْبَةِ: ٧٨.
[5] () الزُّخْرُفِ: ٨٠.

أخبر في آية الزخرف عن هؤلاء الجهّال الذي يعيشون حياتهم بالحسبان! يحسبون، يعيشون حياتهم بالظنون؛ فيحسبون بجهلهم وظلمهم أن الله لا يسمع سرهم الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم، وأن الله لا يسمع نجواهم؛ كلامهم الخفي الذي يتناجون به! فيرد رب العالمين عليهم: "بلى، إنا نعلم سركم ونجواكم" وليس هذا فقط، بل والملائكة الكرام يكتبون أعمالكم حتى إذا رد الناس يوم القيامة نبأهم رب العالمين (وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

فهذا الأمر من الأشياء المهمة التي علينا أن نكشف عن أنفسنا الجهل فيه؛ من الأشياء المهمة أن نتعلم ونتذاكر ونذكر أنفسنا بأن الله مطّلع علينا يعلم سرنا ونجونا.

نلاحظ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)، (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)، (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ) هذا كله يشير إلى جهل الإنسان بعلم الله، وهنا الجهل يكون بمعنى: عدم العلم. ويكون أيضًا بالغفلة عن هذا العلم.

فلنكن لأنفسنا واعظين خاصة ونحن نقرأ كلام رب العالمين. قال: "وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ معيّة عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى" ما معنى "المعيّة" هنا؟ هي المعيّة العامة، التي فيها إحاطة علم الله. "وَلَا شَكَّ

فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ" يعني: من المؤكد أن معنى المعيّة في هذه الآية؛ المعيّة العامة، وهي معيّة الله بعلمه بخلقه، فهو عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، معهم بعلمه -سبحانه وتعالى-، فهو يقول: لا يوجد شك في ذلك، "وَلَكِنَّ أضف على ذلك سَمْعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ" سنقول إن الله عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، مع خلقه بعلمه -سبحانه وتعالى-، أحاط بعلمه هؤلاء الخلق وأيضًا سمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم. فهو -سبحانه- مطّلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء، فهي إحاطة علم، وإحاطة سمع وإحاطة بصر. يعلم أحوالهم، يسمع كلامهم، ويرى أفعالهم، أفعال أبدانهم، أفعال قلوبهم، حديثهم مع نفسهم، حديثهم في السر مع غيرهم، ومن باب أولى جهرهم! ثم ما محصّل هذه الأخبار كلها؟ محصلتها أن لا تنسى مع طول الزمن، بل اجعل هذا على بالك، فاضبط حركاتك وسكناتك وأقوالك وأفعالك وأحوالك، والذكرى تنفع أهل الإيمان، فكن من هؤلاء المنتفعين بما يقرؤون ويسمعون من كلام رب العالمين. قال: "فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. لذلك رب العالمين قال: ثُمَّ قَالَ: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)" هذا تأكيد للمعنى الذي جاء في الآية السابقة، وهذا توجيه

لهمومنا، لا بد أن تكون الآخرة هي همّنا؛ لأن الله سينبئنا بأعمالنا فنكون مشغولين بهذا العرض على رب العالمين، وختم الآية أيضًا بما يدل على إحاطة علمه: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) بالغ العلم، فهو -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير، و(عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، وكما نقل ابن كثير: "قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ." معنى عظيم وهو من آثار إيماننا باسمه الباطن.

نقرأ الآية التالية ونبتدئ فقط بربطها بالآية السابقة، وبإذن الله في غدنا نفهمها أكثر:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8))

هذه الآية تنبئنا عن غباء من لا يعرف الله. الإنسان الذي لا يعرف الله يتصرف ويتكلم ويفكر، ونقطة البداية أنه يفكر! يفكر بطريقة غير منطقية، غير عاقلة، طريقة تستطيع أن تقول فيها "إنها غبية" وأنت مرتاح الفؤاد! لأن هؤلاء يقيسون أفعال الله على أفعال الخلق -تعالى الله عما يقولون- فتجدهم،

وقد نهوا عن النجوى، يعودون إلى التناجي، ويريدون بذلك إيذاء النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأصحابه الكرام.

وتجدهم إذا جاؤوا للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- حيّوه بتحية فيها إيذاء لرسول الله ويظنون أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لا يستطيع أن يدرك ما يقولون وأنهم بهذا وصلوا إلى مقصدهم؛ آذوه وجعلوه كأنه سلام وهو مسبّة له -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وهو -صلَّى الله عليه وسلَّم- لا يؤذيه مثل هؤلاء فهؤلاء من أسافل الناس، لا قيمة لتصرفاتهم.

يتصرفون بهذا كله ويقولون في أنفسهم: (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ) هذا إشارة إلى أنهم يظنون أن الله -عزَّ وجلَّ-، لأنه ما أنزل عليهم عقوبة من السماء في تلك اللحظة، أنه لا يسمع كلامهم ولا يعلم أحوالهم، وليس محيط بهم! وهذا شأن لا بد أن يتصوره أهل الإيمان، أهل الإيمان عليهم أن يتصوروا أثر الإيمان على تزكية نفوسهم وعلى ذكاء عقولهم، وقد ورد في الحديث: «ما تستقِلُّ الشمسُ فيبْقَى شيءٌ مِنَ خلْقِ اللهِ إلَّا سبَّحَ اللهَ بحمدِهِ إلَّا ما كانَ مِنَ الشياطينِ، وأغبياءِ بني آدَمَ»[6] في الحديث أن الشمس حين تخرج ويراها الناس وهي تكشف الظلام وتتدرج في الخروج، آية عظيمة! فلا بد أن يقولوا: "سبحان الله وبحمده" لأنهم يفهمون دلالة خروجها، ويفهمون

---

[6]() أخرجه الطبراني في ((مسند الشاميين)) (960)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (6/111).

أن خروجها ما يكون إلا بأمر الله العظيم، وبعضهم أكثر من ذلك إيمانًا فيتصور الحقيقة الغيبية وأن هذه الشمس قد سجدت عند عرش الرحمن؛ استأذنت أن تخرج على الخلق؛ فخرجت. يعني حين يرون السماء التي كانت ظلامًا، ويرون انقشاع الظلمة وبيان النور، إذا كان عندهم عقول تدرك الدلالات وتعرف مبادئ الأمور ونهاياتها؛ فالمفترض أن يفهموا أن هذا يدل على ملك عظيم ورب كريم، رحمن رحيم، كشف للناس الظلام، وأتى لهم بما فيه مصالحهم؛ فيسبحوا الله. لكن أغبياء بني آدم يرون أن هذه طبيعة الدنيا، وأن الدنيا تتغير من نهار إلى ليل والليل إلى نهار، مثلما يتحرك الهواء، يحرك ورقة جافة في الأرض، لا مقصد ولا حكمة من وراء هذا! لذلك هم أغبياء بني آدم؛ لذا في هذه الآية تفهم مَن هم الأغبياء؛ يظنون أن رب العالمين كلما عصوا أنزل عليهم عقوبة من السماء! لو كان هذا هو الحاصل لاستقام أهل الدنيا كلهم، ولم تظهر حقائق ما في نفوس الخلق! لكن يُمكّنوا ويُتركوا فيخرج الشر منهم، فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر! إن شاء كبتهم في الدنيا، وإن شاء أجّلهم للآخرة ففضحهم على رؤوس الخلائق، وأوقع بهم أشد العذاب، فقد أظهروا ما في نفوسهم وقت تمكنهم. وهؤلاء كلما تمكنوا فعلوا هذا الذي في نفسهم؛ فلذلك أعطوا الفرصة

التي أظهرت ما في نفوسهم، لما أظهروا ما في نفوسهم -والله عليم بهم- كان عذابه مستمر؛ بسبب أن هذا هو الذي في نفوسهم ولم يريدوا تزكيتها، ولم يصحوها، وسيبقون أبد الدهر كلما أتتهم فرصة فعلوا نفس الفعل! لذلك كان عذابهم أبديّ، لأنهم لو أُبِّدوا في الدنيا وطال بهم الزمن سيكون هذا فعلهم كلما مُكّنوا، فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المهم أن نعرف أن أهل الإيمان مهمومين بالآخرة، مشغولين بها، معتنين بمعرفة ربهم، يذكرون أنفسهم كلّ الوقت أن الله معهم، مطّلع على أحوالهم، معهم بعلمه وسمعه وبصره، فإذا استحضروا هذه المعيّة كانوا من الذين اتقوا والذين هم محسنون، فجاءهم ما هو أعلى من هذ المعيّة العامة، جاءتهم المعيّة الخاصة، فانظر لهذا الحال وانظر لحال هؤلاء الذين يقولون في أنفسهم: (لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) من التناجي، ومن التحريف في التحية التي فيها استهزاء بالرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يشكّون أن رب العالمين يسمعهم، يشكّون في معيّته العامة، بل لا يظنون بالله إلا ظنّ الجاهلية! لما رأوا أن العقوبة ما نزلت عليهم؛ بظنهم أن الله إذا سمعهم لا بد أن يعاقبهم في الحال، فنفوا عن الله أن يكون محيط بهم، يسمعهم. لذلك كثيرًا ما تسمع من خرافات

في قصص هؤلاء الكفرة الفجرة تصف الله بصفات الخلق، تعالى الله عما يقولون.

فنؤكد في هذا المقام أن أهل الإيمان صحيحو الاعتقاد، حاضرون دائمًا بالعقيدة السليمة، فتجدهم مميزين عن غيرهم بصحة اعتقادهم، وظهور هذا الشأن منهم، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل الإيمان، أن يجعلنا من أهل القرآن، أن يجعلنا من أهل العقيدة السليمة، اللهم آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته